تراجيديا الرحلة في شعر ابن دراج القسطلي
- قراءة في شعرية التجربة –

The Tragedy of the Journey in the Poetry of Ibn Darraj Al-Qastly
A Reading in experience potry

الدكتورة: فتيحة دخموش

قسم اللغة العربية وآدابها-المدرسة العليا للأساتذة، آسيا جبار- قسنطينة (الجزائر)

dekhmouche.fatiha@ ensc.dz

تاريخ الإيداع: 2024/08/10	تاريخ القبول: 2025/02/03	تاريخ النشر: 2025/03/15

ملخص:

يعد ابن دراج القسطلي من أكثر الشعراء الأندلسيين تعبيرا عن ظاهرة الرحلة، إذ تشكل هذه التجربة الواقعية المطابقة لحياة الشاعر بأبعادها التراجيديةّ، مؤشرا دلاليا وجماليا بارزا في جل قصائده المدحية وباعثا أساسيا من بواعث شاعريته.

وتحاول هذه الدراسة استعراض هذه التجربة القاسية مع الرحلة واستجلاء حدودها وثوابتها الدلالية والجمالية من خلال استنطاق مجموعة من النماذج الشعرية.

الكلمات المفتاحية: الرحلة؛ الشعر الأندلسي؛ تجربة؛ تراجيديا.

Abstract:

Ibn Darraj al-Qastali is considered one of the most Andalusian poets expressig of the phenomenon of the journey. the realistic experience corresponding to the poet's life with its tragic dimension, a prominent semantic

and aesthetic indicator in most his poetic texts and the motive of his poetic motives.

This study attempts to review this harsh experience with the trip and to clarify and show the semantic and aesthetic style in his works by interrogating a group of poetic models.

***key words**:* the journey; Andalusian poetry; experience; tragedy.

1. الرحلة- الشعر-التراجيديا (الإطار المفاهيمي والعلائقي):

الرحلة فتح بلداني ، وإسفار عن وجه الإنسان وعن أناه ، وسفر إلى هناك، ونحو الآخر[1]، وقد عرف الإنسان الرحلة أو الترحال والتنقل منذ الأزل، وعرف الإنسان العربي تحديدا جانبا من تلك الرحلات أيضا منذ القدم ،و مما لا شك فيه أن موضوع الرحلة أو السفر قد يتوفر في العديد من النصوص الأدبية وغير الأدبية ، المنتمية إلى المتن الرحلي وغير المنتمية إليه ، والشعر من الأنواع الأدبية التي قد تتوفر على موضوع الرحلة ولكنها لا تنتمي إلى أدب الرحلة الذي ينضوي تحت جنس السرد ،وينبع من بنية السفر قبل أن يكون نابعا من موضوع السفر الذي قد تتناوله مختلف النصوص . وعلى هذا الأساس تتم معالجة هذا المصطلح في هذه الدراسة باعتباره موضوعا أو تجربة متضمنة في التجربة الشعرية.

وقد عبَّر الشعر العربي القديم عن موضوع الرحلة من خلال نظام القصيدة الجاهلية الذي يذكر فيه الشاعر ارتحاله في الصحراء ويسرد المشاق التي واجهته فيها ويصف الأماكن التي مر بها، وقد ظل هذا الأمر تقليدا فنيا راسخا في الشعر العربي فترة طويلة من الزمن يلتزم به الشاعر سواء أكان قد عاش تجربة الرحلة فعلا أم لم يعشها، إذ صار هذا التقليد بمثابة مسلك فني لابد للشاعر أن يعبر عنه على مستوى الشعر وإن لم يعشه على مستوى الواقع.

وإذا جئنا إلى الشعر الأندلسي وجدنا تجربة الرحلة فيه تنم عن ظاهرة حياتية عاشها المجتمع الأندلسي نتيجة بواعث كثيرة ومختلفة منها طلب العلم و السفارة و الحج و الطرد والنفي أو نتيجة لاضطرابات اجتماعية وسياسية إضافة إلى الفتن والحروب والصراعات الكثيرة التي عرفتها بلاد الأندلس وتميزت بها عن المشرق، الأمر الذي جعل تجربة الرحلة في الشعر الأندلسي وعلى الرغم من بعض محاولات تقليد الرحلة العربية القديمة واصطناع بعض مقوماتها البيئية كالناقة والصحراء التي لا تتناسب أصلا مع بيئة الأندلس قد استطاعت أن تأخذ طابعا خاصا وتنحو منحا مغايرا مبتعدة في ذلك عن الرحلة التقليدية، لتصنع مقوماتها الخاصة (السفينة – البحر) و تصبح بذلك إضافة حقيقية في القصيدة

الأندلسية التي تعتمد الرحلة فيها- إضافة إلى العناصر التقليدية- على عناصر أخرى مستمدة من المؤثرات البيئية التي تميزت بها الأندلس.

ويرتبط خطاب الرحلة في الشعر الأندلسي ارتباطا وثيقا بقصائد المديح ويعرض غالبا في مقدماتها، حيث يستغل الشعراء هذه التجربة –حقيقية كانت أم مصطنعة- كوسيلة للوصول إلى الممدوح والتأثير فيه.

ويعد ابن دراج القسطلي من أكثر الشعراء الأندلسيين الذين اشتهروا بالرحلات والرحلات الإجبارية على وجه الخصوص، وذلك نتيجة ما شهدته الأندلس من الاضطرابات السياسية والنزاعات الداخلية وما عاناه الشاعر من الغربة وفراق الوطن، فمنذ أن غادر ابن دراج مدينته قرطبة على إثر الفتنة الكبرى في الأندلس، حكمت الأقدار عليه بحياة التشرد والرحلة الدائمة بحثا عن المأوى والاستقرار عند الممدوحين.

وقد عمقت طبيعة الرحلة القاسية التي اضطر الشاعر إليها اضطرارا من مأساته وإحساسه القاهر بالضياع والاضطهاد لتغدو هذه الرحلة تراجيديا حقيقية عاشها الشاعر، وإذا كانت التراجيديا " قيمة جمالية تعني التعبير على المأساة بسبب انعكاس حدث معين على المبدع فيجسده بعبارات مؤثرة بالمتلقي تنقلها صور فنية مغبرة ذات قيمة جمالية"[2]، فإن تجارب التغرب والترحال وركوب البحر في الطريق إلى الممدوح وما ينجر عنها تمثل مأساة حقيقية عاشها الشاعر على مستوى واقعة قبل أن يعيشها على مستوى أشعاره من خلال تصويره للرحلة وعرض ما فيها من وصف للمعاناة وحنين إلى الماضي ورغبة في لقاء الممدوح وحلم بالمأوى والأمن وغيرها من المحاور التراجيدية الحزينة التي سنحاول من خلالها استجلاء تجربة الشاعر مع الرحلة معتمدين في ذلك على جانب من المنهج النفسي مادام الموضوع المطروح للبحث شديد الارتباط بالجانب الذاتي ،إضافة إلى بعض الإشارات الأسلوبية في بعض من مواضع الدراسة.

2. الفتنة وبداية الرحلة:

لم تكن الفتنة القرطبية أو البربرية كما تسمى أيضا فترة تحول كبرى في تاريخ الأندلس فحسب (من سيادة قرطبة إلى تشتت الأقاليم)، بل شكلت أيضا نقطة تحول كبرى في حياة ابن دراج القسطلي وقد كان أكثر الشعراء تأثرا بها، لقد قلبت حياته رأسا على عقب وحولته إلى لاجئ مرتحل يشكو عذاب التشرد ومصير الأسرة والأولاد أينما حل وارتحل، لقد كانت سببا في غربته وها هو يصورها عهد جاهلية ويصف ما أحدثته في نفسه من تمزيق لازمه طوال حياته، يقول:

في جاهِلِيَّةٍ فِتْنَةٍ عُبِدَتْ بِهَا دُونَ الإِلهِ مَضَلَّةُ الأَرْبابِ
تُسْتَقْسَمُ الأَزْلامُ فِي مُهَجَاتِنا وتسيلُ أنْفُسُنا عَلَى الأَنْصابِ
غِيَراً من الأَيَّامِ أَصْبَحَ ماؤُها غَوْراً وأُعْقِبَ صَفْوُها بِعِقابِ
وبوارِقاً للغَيِّ أُضْرِمَ نُورُها ناراً وصابَ غَمَامُها بالصَّابِ[3]

إن الفتنة هي بداية التحول في حياة ابن دراج من الإيجاب إلى السلب و من الهوية إلى اللاهوية و من الانتماء إلى التشريد والضياع، إنها الدافع إلى الرحلة والترحال بحثا عن ما فقد من الأمن والاستقرار والمأوى وهذا هو المضمون الذي يتكرر في كل قصائده التي تحدث فيها عن الفتنة وصور فظاعتها وأثرها عليه وعلى أسرته، من ذلك هذه الأبيات من قصيدة يمدح فيها بعض القضاة أين يصف الفتنة بالطوفان العارم وبيوم القيامة الذي غمت فيه السماء بعواصف الموت فشردت أطفاله عن أوطانهم وأسلمتهم إلى أمواج البحار وأغوال القفار وحولتهم إلى أبناء السبيل- على حد تعبيره- يقول:

ولا كَبَني سبيلٍ شَرَّدَتْهُمْ عن الأَوْطانِ قاضِيَةُ القضاءِ
عواصِف فِتْنَةٍ غَمَّتْ بِغَيْمٍ بوارِقُهُ سُيُوفُ الإِعْتِداءِ
فأَصْعَقَهُمْ براعِدَةِ المنايا وأَمْطَرَهُمْ شآبِيبَ الفَناءِ
وطافَ عَلَيْهِمُ طُوفانُ رَوْعٍ أَفاضَ بِهِمْ إِلَى القفْرِ الفضاءِ
سهامُ نَوىً إِلَى بَرٍّ وبَحْرٍ وأَغراضٌ لِنُشَّابِ البلاءِ
وَأَلْحَقَهُمْ بِلُجِّ البَحْرِ سَيْلٌ يَمُدُّ مُدَودَهُ فَيْضُ الدِّماءِ
وحالَ الموجُ دونَ بَني سَبيلٍ يَطيرُ بهِمْ إِلَى الغوْلِ ابْنُ ماءِ[4]

لقد أذلت الفتنة ابن دراج وأبناءه وشردتهم نحو البراري والقفار والبحار باحثين عن العزة والأمن والاستقرار، وهكذا تكون بداية الشاعر مع تجربة الرحلة الدائمة وعذابها الممتد وبداية مواجهة معاناة هجير الفيافي ومصارعة أمواج البحار،يقول في ذلك:

مخاض ما لمولده رضاع وترحال أمر من الفطام
وعام مقامنا عام كيوم ويوم رحيلنا يوم كعام[5]

وتبدو الرحلة في تجربة ابن دراج كمعاناة سرمدية لا تنتهي فهي ليست رحلة عادية بل هي عذاب دائم ورحلة مخيفة تحف بها الأخطار من كل الجهات برا وبحرا، إنها المخاض الذي ليس لمولده رضاع وهي أمر من الفطام وأفجع كما وصفها الشاعر.

3. العناصر التراجيدية في رحلة ابن دراج القسطلي:

1.3. ثنائية البر-البحر(طريق العذاب واليته):

يشكل البر والبحر عاملين أساسيين في رحلة ابن دراج القسطلي يترددان في جل قصائده وخاصة المدحية منها ، وهما من العناصر التي أسهمت بشكل بارز في رسم الصورة التراجيدية لتجربة الشاعر القاسية مع الرحلة وأكسبتها الخصوصية والتفرد، فمعاناة الشاعر مع الرحلة تظهر من خلال هذه الثنائية الملازمة لوصف الشاعر أهوال الرحلة، حيث يتلاعب بكلمات البر – البحر – الموج – الطوفان – الشمس – الهجير – الفلاة... وغيرها من الأوصاف التي تشكل خطاب الرحلة في نصوصه، حيث يعمق البر والبحر وما يتعلق بهما من الصراع النفسي الذي يحتدم في ذات الشاعر فيصورهما تجارا يبيعون السعادة بأبخس الأثمان ويشترون االمصائب والشقاء بأغلاها و يصورهما سجنا يضيق به وبأولاده فيقول:

كَأَنَّ البَرَّ والبحرَ اسْتَطَارَا ... تِجاراً هَمُّهُمْ بُعْدُ الثِّناءِ

يبيعونَ الرَّغائِبَ بَيْعَ بَخْسٍ ... ويَشْرُونَ المصائِبَ بالغَلاءِ

ولكنَّ البضائِعَ من هُمُومٍ ... عَلَتْ بالرِّبحِ فيهمْ والنَّماءِ

فكَمْ طَلَبُوا الأَمَانِي بالأَمانِي ... وكم باعُوا السَّعادَةَ بِالشَّقَاءِ

أَخُو ظَمَأٍ يَمُصُّ حَشاهُ سَبْعٌ ... وأَرْبَعَةٌ وكُلُّهُمُ ظِماءُ

وكُلُّهُمُ كَيُوسُفَ إِذْ فَدَاهُ ... مِنَ القَتْلِ التَّغَرُّبُ والجَلاء

وإِنْ سجنٌ حواهُ فكَمْ حواهم ... سجونُ الفُلْكِ والقفرُ القَواءُ[6]

ويطالعنا البعد التراجيدي للرحلة في هذا المقطع من خلال استعارة تجربة النبي يوسف عليه السلام لحالة الشاعر وأبنائه وما آلوا إليه من التشرد في كنف البر والبحر يصارعون من أجل البقاء وقد افتدوا حياتهم وأرواحهم بأهوال الرحلة.

2.3. البحر(عمق المعاناة):

إذا كان خطاب الرحلة عند ابن دراج القسطلي قد اعتمد في تشكل بنيته على ثنائية البر – البحر معًا، فإن تعامل الشاعر مع عنصر البحر كان أكثر صدقا وإقناعا لاعتبارين أساسيين: أولهما هو ارتباط عنصر البحر بالمؤثر البيئي الذي تميزت به جغرافية الأندلس، فهي شبه جزيرة تطوف بها المياه من معظم جوانبها وبالتالي اعتماد تضاريسها على المائيات واستلهام الشعراء لهذا الجانب في تجاربهم، وثانيهما أن هذا العنصر (البحر) يبدو أكثر قدرة على رسم تفاصيل الصورة المأساوية وتجسيد تراجيدية الرحلة من

عنصر البر، وذلك لارتباط دلالته ورموزه في الغالب بالنظرة السلبية وبهواجس الموت والخوف والخطر والمجهول.

ويتراءى لنا ذلك في رحلته البحرية إلى خيران العامري صاحب المرية ضمن قصيدة رائعة تتجلى لنا فيها الرحلة المأساة في أقصى صورها(الغروب – لجج – البحر – ظلام الليل – الشاعر الشريد الطريد – بناته الضعيفات الكسيرات) يقول فيها:

لك الخير قد أوفى بعهدك خيران	وبشراك قد آواك عز وسلطان
إليك شحنا الفلك تهوي كأنها	قد ذعرت من مغرب الشمس غربان
على لجج خضر إذا هبت الصبا	ترامى بنا فيها ثبير وثهلان
وفي طي أسمال الغريب غرائب	سكن شغاف القلب، شيب وولدان
إذا غيض ماء البحر منها مددنه	بدمع عيون يمتريهن أشجان
يقلن وموج البحر والهم والدجى	تموج بنا فيها عيون وآذان
ألا هل إلى الدنيا معاد وهل لنا	سوى البحر قبر أو سوى الماء أكفان[7]

فالنص عبارة عن وصف خارجي لموقف الرحلة يسوده انفعال داخلي تهيمن فيه صورة البحر على الجو بأكمله، مما يزيد في صعوبة هذه الرحلة، وحتى وقت الغروب الذي اختاره الشاعر لهذه الرحلة يحمل دلالات عميقة لتجربة ذاتية أليمة رسمها الشاعر في صورة سفينة تهوي ساعة الغروب بأشرعتها في لجج البحر كأنها غربان خائفة من قدوم الليل وهي شرع مرتفعة على أمواج البحر الأخضر كأنها عند هبوب الرياح جبل ثبير وثهلان تحمل على ظهرها ركابا تجمدت أطرافهم من شدة الخوف والرعب، فالشاعر غريب وأبناؤه غرباء في عرض البحر ليلهم أكثر ظلمة، دموعهم تضاهي في غزارتها ماء البحر، لهم زفرات ملتهبة لو سكنت السفينة لوجدت فيها بديلا عنها شوقا إلى أحبتهم، ويصل الشاعر بمشهد الرحلة البحرية إلى قمة التصوير التراجيدي عندما يعرض لوصف حال بناته داخل السفينة والحوار الذي جرى بينهن أو بينه وبينهن – يقلن وموج البحر... إنها صورة مروعة مفزعة اجتمعت فيها كل دواعي المأساة على الشاعر: بحر لجي عميق يورد من يركبه المهالك – موج البحر العاتي المرعب – هم منصب – ليل حالك الظلام – بنات ضعيفات خائفات بلا مأوى... إنها قمة التشرد عندما يصبح البحر موطنا للإنسان الشريد وتصبح أمواجه بديلا مروعا عن قبور الأرض وعن أكفان تأويه في بر الوطن فيصبح البحر بما يحمله من الدلالات السلبية كفنا وقبرا له.

وتزيد صورة الأبناء – البنات - من تراجيدية المشهد أيضا، حين يعمد الشاعر إلى التأكيد على معنى الضعف وقلة الحيلة باستخدام صورة البنات لأن البنات عادة رقيقات الإحساس ضعيفات الجسد لا طاقة لهن بعناء السفر وأهواله، مع ما توحيه هذه الصورة من انكسار الشاعر وعجزه عن حماية بناته.

هكذا نلاحظ كيف تتميز الرحلة البحرية عند ابن دراج عن الرحلة البرية وكيف تصنع خصوصية تجربة الشاعر ومعاناته وسط ذلك الجو المشحون بالخوف والرعب والقلق والتوتر.

3.3. الموقف الأسري وتعاظم المأساة:

يمثل الموقف الأسري أمام أعين ابن دراج القسطلي في معظم أشعاره التي ينظمها وخاصة تلك التي يتوجه بها إلى الممدوحين كون الشاعر يحمل مسؤولية أسرة كثيرة الأبناء بين ذكور وإناث، لذلك فهو لا يدخر جهدا في محاولة حماية هذه الأسرة وصونها من الخطر ولو تطلب ذلك منه التفريط في كرامته وعزة نفسه، وهي ذلة تولدت لديه من هذا الشعور القوي بعبء مسؤوليته اتجاه تلك الأسرة التي ليس لها عائل سواه. وهذا الإحساس الذي كان يسري في قصائد ابن دراج وطالما اتكأ الشاعر عليه في التعبير عن اضطراب أحواله وسوء معيشته ستذكيه رحلة التشرد والضياع فيما بعد، فنرى ابن دراج يضرب على وتره في رسم المأساة وهي تتعاظم عليه وهو يقف عاجزا لا حيلة له في حماية هذه الأسرة من الضياع وهو إحساس بالمعاناة يثير العطف والشفقة.

ويظهر لنا جانب من هذا الموقف في هذا النموذج الذي يصف فيه حالة التشرد والارتحال عن الوطن نحو البحار والقفار، ويصف معاناته ومعاناة " أبناء السبيل" –كما وصفهم- في قوله من قصيدة سالفة الذكر :

ولا كَبَني سبيلٍ شَرَّدَتْهُمْ	عن الأَوْطانِ قاضِيَةُ القضاءِ
سَرَوْا فَشَرَوْا بأَفياءٍ صَوافٍ	فيافِيَ لا يَقِينَ من الضَّحاءِ
وأَلْبَسَهُمْ ثِيابَ الذُّلِّ خطبٌ	يَلِيهِمْ فِي ثِيابِ الكِبْرِياءِ
وَأَلْحَقَهُمْ بِلُجِّ البَحْرِ سَيْلٌ	يَمُدُّ مُدَودَهُ فَيْضُ الدِّماءِ

ويذكر الشاعر أبناءه في موضع آخر من قصيدة مدحية متوسلا بحالته وحالتهم مركزا على عددهم وكيف أثقلت مسؤوليتهم كاهله وكيف شردتهم الفتنة فصاروا بلا مأوى والأب يتقطع قلبه على فلذات أكباده، يقول من قصيدة قالها في القاسم ابن حمود بقرطبة:

فِي سِتَّةٍ ضَعُفُوا وضُعِّفَ عَدُّهُمْ	حَمْلاً لمهورِ الفُؤَادِ مُبَلَّدِ
شدَّ الجلاءُ رِحالهُم فتَحَمَّلتْ	أَفلاذ قلبٍ بالهُمُومِ مُبَدّدِ
وَحَدَتْ بِهِمْ صَعَقَاتُ رَوْعٍ شَرَّدَتْ	أَوْطانَهُمْ فِي الأرضِ كُلَّ مُشَرَّدِ
عاذُوا بلَمْعِ الآلِ فِي مَدِّ الضُّحى	مِنْ بَعدِ ظِلِّ فِي القُصورِ مُمَدَّدِ
ورَضُوا لباسَ الجُودِ يَنْهَل مِنهُمُ	بِالبُؤْسِ أَبشارَ النَّعِيمِ الأَرْغَدِ
واستَوْطَنُوا فَزَعاً إِلَى بَحرِ النَّدى	أَهْوَالَ بَحْرٍ ذي غَوَارِبَ مُزْبِدِ[8]

هكذا يمضي الشاعر مقارنا بين ما كان عليه أبناؤه من النعيم والعزة والكرامة في الماضي وما صاروا إليه من الذل والتشرد والهوان في حاضر هذه الرحلة التي أسلمتهم إلى البحار والقفار.

وتتعاظم مأساة الرحلة والتشرد على الشاعر عندما يتعلق الأمر بأبنائه البنات اللواتي برزن بعد الصون والستر للأخطار والمكاره في تلك الرحلة المروعة، يقول مصورا ذلك:

غَريبٌ وكم غَرَّبَتْ رَاحَتا	هفِي الأَرْضِ من وَجْهِ بكْرٍ بَتُولِ
مُكَرَّمَةٍ مَا نَأَتْ عَنْ بلادٍ	ولا قَرُبَتْ من شَبيهٍ مَثيلِ
تُضيءُ لَهَا مُظلِمَاتُ النُّفُوسِ	وتُروى بِهَا ظامِئاتُ العُقُولِ
وتطلُعُ فِي زاهراتِ النُّجومِ	ومطلعُها جانِحٌ لِلأُفُولِ
شَرِيدُ السُّيوفِ وفَلُّ الحُتوفِ	يَكيدُ بأَفْلاذِ قَلبٍ مَهولِ[9]

إن ما يزيد من معاناة الشاعر هو "ذلك الإحساس القوي بالأسرة، ذلك الإحساس الأبوي الرائع بالمسؤولية، وهي مسؤولية ثقيلة على قلبه، لأنه شديد التمسك بذاك الرباط، رباط الحب الذي يجمعه بأبنائه، خاصة بناته اللواتي برزن للأخطار، وتعرضن للمهانة والذلة"[10]، وابن دراج كثيرا ما يضرب على هذا الوتر من الشكوى في مدحياته وهو وتر البنات اللاتي هن في حاجة إلى الحماية ، والأب الضعيف المسن الخائف من عدم توفير تلك الحماية لهن وصيانة عرضهن.

إن وصف معاناة الأبناء ورسم صورة تشردهم لا تفارق الشاعر في كل قصيدة تقريبا وهو يصف الرحلة برية كانت أم بحرية، فبمعاناة هؤلاء الأطفال الضعفاء صغار السن عديمي القدرة على تحمل مشاق السفر تتضاعف هموم الشاعر وعذاباته، الأمر الذي يزيد من مأساوية مشهد الرحلة ويثير في النفس العطف والشفقة على هذه الأسرة المتشردة، ومثل هذا الإحساس بالأسرة وهذا التعاطف مع الأبناء نادر في الشعر العربي، ومعظم نصوص الرحلة عند بن دراج يسري فيها هذا الإحساس وهذا الموقف الأسري الفريد من نوعه الذي غالبا ما يصف الشاعر فيه نفسه وأبناءه بالذلة والضعف وعدم القدرة على تحمل مشاق السفر، يقول:

وأفلاذُ الفؤادِ أَمَضُّ قَرْحاً إذَا رَمَتِ العيونَ بما تُساءُ
فما كسرورِهِمْ فِي الدهر حُزْنٌ ولا كشِفائِهم فِي الصدْرِ داءُ
نَقَائِذُ فتنةٍ وخُلوفُ ذُلٍّ أَلَذُّ من البقاءِ بِهِ الفَناءُ[11]

ويلاحظ أن ابن دراج عندما يصف معاناة أبنائه أمام الممدوح كثيرا ما يذكر عددهم، فهم تارة سبعة وتارة أربعة وتارة ستة وهذا التركيز الدائم على العدد يُعَوّل عليه الشاعر لاستمالة الممدوح وزيادة التأثير فيه وعليه، يقول:

بِسَبْعٍ كَسَبْعِ سَمامِ السَّمُومِ وأَرْبَعَةٍ كَرُبُوعِ العَفاءِ
يُفَدُّونَ نَفْسِي من الحادِثَاتِ وَمَا لِي ولا لَهُمُ مِنْ فِداءِ
وكَمْ ضَرَبُوا بِقِداحِ الحُنُوِّ عَلَيَّ ففازُوا بِقِسْمٍ سَوَاءِ
وَقَدْ أَسلَمَتْهُمْ سمائي وأَرْضِي فلا مِنْ ثَرَايَ ولا مِن ثَرَائِي
فيا ضِيقَ ذَرْعِي لَهُمْ بالزَّفِيرِ عَلَى ضِيقِ ذَرْعِي بِضِيقِ الشِّتاءِ[12]

وتكتمل صورة الموقف الأسري في رحلة ابن دراج بشكوى الزوجة من حياة التشرد والفراق الدائم مما يزيد في عذاب الشاعر وحيرته أمام أسئلة هذه الزوجة المحملة بالاستنكار والتعجب من هذه الأقدار التي تلاحقهم باستمرار حتى وهم في دار الغربة، يقول:

قالتْ وَقَدْ مَزَجَ الوداعُ مدامعاً بمدامعٍ وترائباً بترائِبِ
أَتَفَرُّقٌ حَتَّى بمنزلِ غُرْبَةٍ كم نحنُ للأَيَّامِ نُهْبَةُ ناهِبِ
فِي كلِّ يومٍ مُنتوىً مُتباعِدٌ يرمي حُشاشَةَ شملِنا المُتقارِبِ[13]

4.3. الرحلة والزمن التراجيدي (زمن الرحلة):

يرتبط عنصر الزمن بتجربة الرحلة في شعر ابن دراج القسطلي ارتباطا وثيقا و ذلك لأن الرحلة عنده معاناة دائمة ومستمرة، يقول:

وحَتَّامَ النوى تهوي برحلي وَقَدْ عَقَدتْ بذمَّتِهِ ذِمامِي
فليس لنا إِلَى وَطَنٍ مَرَدٌّ ولا فِي دارِ قومٍ من مُقامِ[14]

إنها حالة زمنية شاذة في رحلة ابن دراج، فإذا كان الزمن بمفهومه الخارجي العام هو "الزمن الفاعل الذي يطلق على التأثير في الأشياء، وهو موضوعي وكمي قابل للقياس"[15]، فإنه في رحلة ابن دراج زمن نفسي داخلي خاص لا يقبل القياس "إنه الزمان الوجودي الذاتي الوجداني المصبوغ بالانفعال كزمان الانتظار وزمان الأمل"[16]وهو زمن تراجيدي لا يستطيع الشاعر أن يمسك فيه لا بالماضي ولا بالحاضر و لا بالوطن

ولا بمقر الغربة (ليس لنا إلى وطن مرد ولا في دار قوم من مقام)، إنه زمن الرحلة الدائمة التي لا تريد أن تنتهي فهي عنده مخاض ما لمولده رضاع وترحال أمر من الفطام وأفجع ويوم الرحيل يوم كعام في امتداده وطوله وعدم انقضاء أساه، يقول معبرا عن كل ذلك من أبيات سالفة الذكر:

مخاض ما لمولده رضاع وترحال أمر من الفطام
وعام مقامنا عام كيوم ويوم رحيلنا يوم كعام

ووفق قانون الأضداد تتضح أعماق فهم ابن دراج لطبيعة هذه الرحلة الأبدية ويتضح إحساس الشاعر بزمنها وهو الزمن النفسي الذي لا يقيسه الشاعر بالساعات والأيام والأعوام، بل حسب ما تمليه مشاعره الذاتية وإحساسه بعذاب الرحلة حيث تطول أوقات الأسى والحزن وتقصر لحظات الرضى والفرح، فالأعوام التي قضاها الشاعر مستمتعا بالاستقرار مرت بسرعة بينما زمن الرحيل يمتد ليشغل المساحة الأطول والأثقل، وهذا الزمن النفسي الذي يحياه الشاعر بشعوره يطلق عليه اسم الديمومة "وهي النظام الإيقاعي الذي يعطي شكلا ذاتيا خاصا لتتالي الحالات الشعورية".[17]

ويبدع ابن دراج في تصوير ديمومة هذه الرحلة وعذابها المستمر المتجدد المتكرر الذي يعاود الشاعر عاما بعد عام فيتساءل ويستفهم للتمني والترجي والإنكار:

فهل حول يحول بلا رحيل ولو شيئا نراه في المنام[18]

إنها الرغبة العارمة إلى الاستقرار والخلاص من هاجس الرحلة المروع.

5.3. الممدوح (الملاذ):

لقد اتخذ ابن دراج القسطلي من موقف المديح مطية لسرد معاناته مع الرحلة والغربة وعرض آلامه وأحزانه وآماله في هذا الممدوح –الملاذ- الذي صار ملجأه الوحيد من الغربة والضياع عساه يجد عنده ما فقد من حياة النعيم والاستقرار، ويظهر ذلك جليا في هذه القصيدة التي وجهها إلى علي الحمودي والي سبتة بعد أن اجتاز البحر إليه هربا من الفتنة ومعه أسرته ومطلعها:

لَعَلَّكِ يَا شمسُ عند الأصيلِ شَجِيتِ لِشَجْوِ الغريبِ الذَّليلِ
فكونِي شَفيعي إِلَى ابْنِ الشَّفِيعِ وكُونِي رَسُولِي إِلَى ابن الرَّسُولِ
فإِمَّا شَهِدْتِ فأَزْكى شَهيدٍ وإِمَّا دَلَلْتِ فأَهدى دَليلِ
عَلَى سابِقٍ فِي قُيودِ الخُطُوبِ ونجمِ سَناً فِي غُثاءِ السُّيولِ
غَريبٌ وكم غَرَّبَتْ رَاحَتا هُ فِي الأَرْضِ من وَجْهِ بكْرٍ بَتُولِ
شَريدُ السُّيوفِ وفَلُّ الحُتوفِ يَكيدُ بأَفْلاذِ قَلبٍ مَهولِ[19]

لقد اختار الشاعر الشمس واسطة بينه وبين الممدوح واختارها وهي في وقت الغروب ليرمز بها إلى ضعفه وذلته وانكساره،ثم أخذ يسرد معاناته وبعد سرده لتلك المعاناة يعاود الالتفات إلى الممدوح - الملاذ- متمنيا زوال هذه المحنة المريرة على يديه وذلك من خلال خلع كل الصفات الإيجابية على ذلك الممدوح وتكرارها والتأكيد عليها بغاية التأثير فيه وحيازة تعاطفه معه، يقول من القصيدة ذاتها:

لَعَلَّ عواقِبَهُ أَنْ تَتِمَّ فَيُهدى الغريبُ سَواءَ السَّبِيلِ
إِلى الهاشِميّ إِلَى الطَّالِبِيّ إِلَى الفاطِمِيّ العَطُوفِ الوَصُولِ
إِلَى ابنِ الوَصِيّ إِلَى ابن النَّبِيّ إِلَى ابن الذَّبيح إِلَى ابن الخَليلِ

وتتجسد صورة الممدوح –الملاذ- بشكل أكثر بروزا في سرقسطيات ابن دراج التي نظمها في المنذر ابن يحي وولده، وفيها تتجلى لنا رحلة الشاعر نحو التخلص من حياة التشرد و يتجلى لنا حلمه بالأمن والحماية ورغد العيش في كنف هذا الممدوح فيصوره بعد وصفه لعذاب رحلته وغربته منقذا حاميا، يقول:

إِلَيْكَ سَبَقْتُ أَقْدارَ الحِمامِ وعَنْكَ هَتَكْتُ أَسْتارَ الظَّلامِ
ونَحْوَكَ جُبْتُ لَيْلَ البِيدِ حَتَّى تركتُ دُجاه مفضوض الختامِ
ولَقَّتْنِي الأَمانِي مِنْكَ وَجْهاً يُنيرُ الأَرْضَ فِي داجي الظَّلامِ
وآوَيْتَ الغريبَ وهل غريبٌ توخَّى ركنَ عِزِّكَ باسْتِلامِ
ومَنْ مَلَّ الجلاءَ فعاذَ منه بسُورِ الأَمْنِ فِي البَلَدِ الحرامِ
وشدَّ يَدَيْهِ فِي قربٍ وبعدٍ بحبلِ المُنْذِرِ المَلِكِ الهُمامِ
وَقَدْ نَبَذَ الأَنامَ بكلِّ أرضٍ إِلَيْكَ إِلَيْكَ يَا خَيْرَ الأَنامِ
ومَنْ ذا يَا مليكاً مُسْتَجاراً سِواءَكَ للغريبِ المُسْتَضَامِ[20]

4. الظواهر الجمالية في رحلة ابن دراج:

لقد تمكن ابن دراج القسطلي من عرض تجربته المأساوية في الرحلة وإظهار الجانب التراجيدي لها من خلال وصفه الدقيق للمعاناة في القفار والبحار وتصويره المؤثر لمشاعر الخوف والفزع التي اعترته وأسرته في رحلة الجحيم تلك، وكل ذلك جاء اعتمادا على مجموعة من العناصر الفنية والأسلوبية الخاصة التي استطاع بواسطتها تحقيق الهدف من الشعر الجيد –على حد تعبير حازم- وهو إحداث الغرابة وتوليد المفارقة بغية التأثير في المتلقي[21]، وأهم تلك العناصر:

1.4. توظيف أسلوب السرد والحكى: بما يتناسب وموقف الترحال أو تجربة الرحلة، فهو يسرد معاناته ويحكي تفاصيلها ويصف الرحلة بكل تفاصيلها وبمن فيها من الشخصيات وهي: الشاعر – الزوجة – الأبناء، ويوظف لأداء ذلك مجموعة من النعوت والصفات وصيغ المبالغة بهدف استمالة الممدوح والمتلقي بصفة عامة، وغالبا ما يستعمل ضمير الجمع الغائب "هم" عندما يسرد أحوال أسرته ومأساة أولاده وكذلك الضمير "نحن" عندما يصير هذا الحكى في الحاضر أو عندما يتكلم عن أناه، وضمن هذا الأسلوب يكثر الشاعر من الأفعال الماضية خاصة تلك التي تفيد الحركة والتحول والصيرورة[22] مثل: شردتهم، طاف عليهم، ألحقهم، حواهم، شد الجلاء، رضوا لباس الجود، استوطنوا فزعا، ضربوا كقداح الحنو...وغيرها.

2.4. التقابل والتضاد: وهي من العناصر الأساسية في شعرية ابن دراج يعتمدها في عرض وقائع الرحلة إذ يقابل الماضي بالحاضر و يقارن بين الزمن الداخلي والزمن الخارجي ويوازن بين صورة قساوة الحاضر ونعيم الماضي وبين الشباب والمشيب و بين البر والبحر...إلخ ويعمل هذا الأسلوب على نمو النص وتوليد الدلالة[23]، ذلك أن المعاني تقترن على أساس التماثل، والمناسبة أو على أساس المضادة والمخالفة، كما قال حازم[24]، فعلى محور تلك الثنائيات الضدية القرب/البعد، المطلع/الغروب، البر/البحر... يتشكل خطاب الرحلة عند ابن دراج وينمو ليجسد عمق التجربة وصدقها.

3.4. **الاتكاء على الصورة** التي مصدرها حركية الرحلة وديمومتها وهي مصدر الصورة عند ابن دراج ومنبعها، حيث نراه في النماذج التي تناولناها يركز على صورة الحركة: حركة البحر وما يتصل به (الموج، الرياح، السفينة) وتصوير وفوده على الممدوح...إلخ. وإضافة إلى عنصر الحركة البارز تعتمد الصورة عند ابن دراج على عناصر أساسية أخرى فاعلة أهمها التجسيد والتشخيص والرمز وكلها مستويات تصل إليها الصورة عنده بفضل الاستعارة والارتباط الشديد بالموقف النفسي، وبعض الصور عنده تبلغ مرتبة الرمز بل وتصل إلى حد الكثافة الرمزية نظرا لإلحاح الشاعر عليها وتكراره لها مثل: البر – البحر- الموج – القفار – الغروب الأصيل، وعلى الرغم من كونها صور مستمدة من الطبيعة ومظاهر الكون، إلا أن الشاعر يخلع عليها من تجربته ويربط بينها وبين ذاته، فهي صورة موحية ترتبط ارتباطا وثيقا بالتجربة الشعورية وتدل دلالة قاطعة على عمق التجربة الشعرية وعلى نجاحها، وتظهر أهمية الرمز هنا من حيث كونه إشارة منظورة خارجية لحالة داخلية في سبيل اكتشاف العلاقات الغامضة بين المادة والروح.[25]

خاتمة:

ونخلص إلى أن الرحلة في شعر ابن دراج هي جزء من الرحلة الأندلسية التي تختلف في طبيعتها وعناصرها عن رحلة الشاعر العربي القديم في الصحراء واصفا مسالكها وحيواناتها تبعا لتقليد فني طالما ترسَّخ وجوده في القصيدة العربية القديمة ،فالرحلة الأندلسية تعكس تجربة واقعية ومعاناة حقيقية أفرزتها ظروف استثنائية عرفتها الأندلس دون غيرها من أقاليم العالم العربي والإسلامي. والرحلة عند ابن دراج أيضا هي سرٌّ من أسرار شاعريته التي فجرتها هذه التجربة التي وفق الشاعر في إبرازها وتحقيق غاية التأثير في الملتقى بها، وذلك من خلال رؤية دلالية عميقة جسدت طبيعة تلك الرحلة المخيفة المليئة بالأخطار برًّا وبحرًا،تلك الرحلة الدائمة والمتجدّدة التي تمثل للشاعر معاناة مستمرة ومثقلة بأعباء المسؤولية الأبوية ،ومن خلال تقنيات جمالية بارزة استطاع بواسطتها إبراز العناصر التراجيدية لهذه الرحلة تمثلت أساسا في أسلوب السرد والحكي الذي وظفه الشاعر في وصف الرحلة وسرد وقائعها، وفي المقابلة بين الماضي والحاضر التي وظفها تأكيدا للتجربة وتعميقا لدلالتها،إضافة إلى المجازات والتشبيهات والاستعارات ذات البعد التشخيصي والتجسيدي والرموز المكثفة في صور البحر والبر والليل والغروب التي عملت مجتمعة على إبراز معاناة الرحلة ومأساتها.

قائمة المصادروالمراجع:

1.صليبا، جميل. المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والانكليزية واللاتينية. ج1، دط. الشركة العالمية للكتاب، دار الكتاب العالمي بيروت، لبنان، 1414هـ-1994م.

2.ابن دراج القسطلي. الديوان. تحقيق محمود علي مكى. ط1. دمشق: منشورات المكتب الإسلامي، 1381هـ-1961م.

3.بوغلا، أحمد. الرحلة الأندلسية الأنواع والخصائص. ط1. الرباط: دار أبي رقراق للطباعة والنشر، 2008م.

4.الحاوي، إيليا. في النقد الأدبي. ط5، ج1. بيروت: دار الكتب اللبناني، 1986م.

5.حسين، الواد. في مناهج الدراسية الأدبية. ط4، نشر عيون المقالات، الدار البيضاء. 1988م.

6.صالح البلداوي، حميدة. باعث العاطفة في حقول التراجيديا في الشعر الأندلسي. مجلة البحوث التربوية والنفسية، العدد السابع عشر.

7.طحطح، فاطمة. الغربة والحنين في الشعر الأندلسي. ط1. الدار البيضاء: منشورات كلية الآداب بالرباط مطبعة النجاح الجديدة، 1993.

8.عصفور، جابر. مفهوم الشعر. دراسة في التراث النقدي. ط3. بيروت، 1983م.

9.القرطاجي، حازم. منهاج البلغاء وسراج الأدباء. ط2. تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن الخوجة. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1981م.

10. مراد، يوسف. مبادئ علم النفس العام. ط8 (مزيدة ومنقحة). القاهرة: دار المعارف. دت.

الإحالات:

[1]- بوغلا، أحمد. الرحلة الأندلسية الأنواع والخصائص. ط1. الرباط: دار أبي رقراق للطباعة والنشر، 2008م، ص 25.

[2]- صالح البلداوي، حميدة. باعث العاطفة في حقول التراجيديا في الشعر الأندلسي. مجلة البحوث التربوية والنفسية، العدد السابع عشر. ص 107.

[3]- ابن دراج القسطلي. الديوان. تحقيق محمود علي مكى. ط1. دمشق: منشورات المكتب الإسلامي، 1381هـ-1961م. ص 184.

[4]- المصدر نفسه. ص ص 322-323.

[5]- المصدر نفسه. ص 231.

[6]- المصدر نفسه. ص 324-328.

[7]- المصدر نفسه.ص ص 86-87-88.

[8]- المصدر نفسه. ص 74.

[9]- المصدر نفسه. ص 76.

[10]- طحطح، فاطمة. الغربة والحنين في الشعر الأندلسي. ط1. الدار البيضاء: منشورات كلية الآداب بالرباط مطبعة النجاح الجديدة، 1993، ص 95.

[11]- ابن دراج القسطلي. الديوان. ص ص 328-329.

[12]- المصدر نفسه. ص 340.

[13]- المصدر نفسه. ص 110.

[14]- المصدر نفسه. ص 231.

[15]- صليبا، جميل. المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والانكليزية واللاتينية. دط. بيروت، لبنان: الشركة العالمية للكتاب-دار الكتاب العالمي، 1414هـ-1994م- ج1. ص 638.

[16]- المرجع نفسه، ص ن.

[17]- مراد، يوسف. مبادئ علم النفس العام. ط8 (مزيدة ومنقحة). القاهرة: دار المعارف. دتا. ص 254.

[18]- ابن دراج القسطلي. الديوان. ص 231.

[19]- المصدر نفسه. ص ص75-76-79.

[20]- المصدر نفسه. ص ص 226-227-231-232.

[21]- القرطاجي، حازم. منهاج البلغاء وسراج الأدباء. ط2. تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن الخوجة. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1981م. ص 90.

[22]- ينظر: حسين، الواد. في مناهج الدراسية الأدبية. ط4، نشر عيون المقالات، الدار البيضاء. 1988م، ص 90.

[23]- طحطح، فاطمة، المرجع السابق، ص 153.

[24]- عصفور، جابر. مفهوم الشعر. دراسة في التراث النقدي. ط3. بيروت، 1983م. ص 290.

[25]- الحاوي، إيليا. في النقد الأدبي. ط5، بيروت: دار الكتب اللبناني، 1986م. ج1. ص 143.